

القسم الثانى

أولاً:

آراء فى اللغة صائبة لابن خلدون

آراء سديدة - لابن خلدون

- عبد الرحمن ابن خلدون^(١) - رحمه الله تعالى - من القلائل، فى التراث العربى الإسلامى الذين وهبوا عقلاً مفكراً قادراً على «التحليل» بكفاءة.

- ومع ذلك.. فالرجل أبدى آراءً فى أمور كثيرة.. بعضها يُعدُّ مما هو متخصص به، كالتاريخ، والسياسة، والاجتماع. وبعضها يعدُّ مما هو غير متخصص به - كالنحو والبلاغة، والنقد واللغة، ولهذا.. فهو يسهل عليه أن يصف بعض النحاة، بأن أحدهم إذا أراد أن يكتب سطرين لصديقه لا يستطيع. لأنه لأمس ذلك بنفسه من النحاة المحترفين.

(١) سبق بيان (علة) كتابة (ابن) أينما وردت، وفى بدنها - ألف - ونعيد العلة هنا - بتعبيرات أخرى. أينما وردت (ابن) أكتبها وفى أولها (ألف) ولم أفرق بين الحالة التى يسبقها فيها علم والتى لا يسبقها فيها علم، لأن التفريق بين الحالتين ليس له سوغ معقول. هذا.. فضلاً عن أنه يبلبل الناشئة، ويصعب عليهم التعلم، والتيسير يقتضى إيرادها دائماً. يضاف إلى ذلك.. أن الناس يقرأون المکتوب، (ومعهم حق) ولذلك يقولون: (بن بركة) بدل (ابن بركة) و(بن لادن) بدل (ابن لادن)، حتى عندما يسبق الاسم الأول يقولون: (أسامة بن لادن) بدل (أسامة ابن لادن).

- يَبْدُ أن الرجل - لخوضه في تخصصه - وفيما ليس من تخصصه -
أصاب في بعض آرائه وأخطأ ببعضها الآخر ، وهو ما سبق أن عرضناه ،
في القسم الأول من هذا البحث .

- ومما أصاب به هو ما سنقدمه . في هذا القسم ، تحت عنوانين :
الأول - آراء في اللغة صائبة انفراد بها . والثاني - مقارنة ما جاء به من
سديد القول في اللغة (ومع آرائه - آراء الإمام الجرجاني) .. مع ما جاء
به كاتب غربي هو - ناحوم تشومسكي) .



آراء صائبة انفرد بها ابن خلدون

١- إن من حصلت له ملكة فى صناعة فقل أن يجيد بعدها ملكة فى صناعة أخرى

ومثال ذلك الخياط إذا أجاد ملكة الخياطة وأحكمها، ورسخت فى نفسه، فلا يجيد من بعدها ملكة النجارة أو البناء؛ إلا أن تكون الأولى لم تستحكم بعد، ولم ترسخ صبغتها، والسبب فى ذلك أن الملكات صفات للنفس وألوان؛ فلا تزدهم دفعة. ومن كان على الفطرة كان أسهل لقبول الملكات وأحسن استعدادًا لحصولها، فإذا تلونت النفس بالملكة الأخرى وخرجت عن الفطرة ضعف فيها الاستعداد باللون الحاصل من هذه الملكة، فكان قبولها للملكة الأخرى أضعف. وهذا بَيِّنٌ يَشْهَدُ له الوجود. فقلَّ أن تجد صاحب صناعة يُحْكَمُها، ثم يُحْكَمُ من بعدها أخرى، ويكون فيهما معًا على رتبة واحدة من الإجابة. حتى إن أهل العلم الذين ملكتهم فكرية فهم بهذه المثابة. ومن حصل منهم على ملكة علم من العلوم وأجادها فى الغاية؛ فقلَّ أن يجيد ملكة علم آخر على نسبته؛ بل يكون مقصرًا فيه إن طلبه؛ إلا فى الأقل النادر من الأحوال^(١).

(١) المقدمة، ص ٧٢١.

تعليق:

(قول ابن خلدون السابق من الأقوال النيرة التي يشهد لها الواقع - وتحليله لأسبابها صحيح. وقد فصلنا الكلام في هذا (في القسم الأول)، عندما عللنا لمثل هذا... بأن الأديب لا يجيد الشعر، والنثر - معاً - وإنما يجيد أحدهما، وإذا حاول الاثنین معاً جاءت رتبته، دون الذى يقف عند فن واحد. ومثل الأدب^(١).. سائر الصناعات.

٢ - إن الصنائع تكسب صاحبها عقلاً وخصوصاً الكتابة والحساب

(قد ذكرنا فى الكتاب أن النفس الناطقة للإنسان، إنما توجد فيه بالقوة^(٢)). وأن خروجها من القوة إلى الفعل إنما هو تجدد العلوم والإدراكات عن المحسوسات أولاً؛ ثم ما يكتسب بعدها بالقوة النظرية إلى أن يصير إدراكاً بالفعل وعقلاً محضاً؛ فتكون ذاتاً روحانية وتستكمل حينئذ وجودها. فوجب لذلك أن يكون كل نوع من العلم والنظر يفيدها عقلاً مزيداً. والصنائع أبداً.. يحصل عنها وعن ملكتها قانون علمي مستفاد من تلك الملكة. فلهذا كانت الحنكة فى التجربة تفيد عقلاً، والملكات الصناعية تفيد عقلاً؛ والحضارة الكاملة تفيد عقلاً؛ لأنها مجتمعة من صنائع فى شأن تدبير المنزل، ومعاشرة

(١) انظر: من القسم الأول: عنوان (ترسل الإسلاميين وخطبهم).

(٢) قوله: (إن النفس الناطقة للإنسان، إنما توجد فيه بالقوة-). أفضل على كلمة - بالقوة - التى هى من اصطلاحات الفلاسفة، أفضل كلمة - بالإمكان - لأن القوة فى الشئ.. فعل قائم ظاهر، وليس مجرد «استعداد»، أما كلمة - بالإمكان - فلا تعنى الفعل المائل، وإنما تعنى الاستعداد لتلقى الشئ واستيعابه فإذا نفذته أصبح «قوة». أما يقال: فرق الأمن المضربين بالقوة.

أبناء الجنس، وتحصيل الآداب في مخالطتهم؛ ثم القيام بأمور الدين واعتبار آدابها وشرائطها. وهذه كلها قوانين تنتظم علومًا، فيحصل منها زيادة عقل^(١).

٣- إن العجمة إذا سبقت إلى اللسان قصرت بصاحبها في تحصيل العلوم عن أهل اللسان العربي:

والسّر في ذلك أن مباحث العلوم كلها إنما هي المعاني الذهنية والخيالية. [الخيالية هي]^(٢)؛ العلوم الشرعية، التي هي أكثر مباحثها في الألفاظ وموادها من الأحكام المتلقاة من الكتاب والسنة...، وهي كلها في الخيال؛ [والذهنية هي]؛ العلوم العقلية، وهي في الذهن. واللغات إنما هي ترجمات عما في الضمائر من تلك المعاني...^(٣). والألفاظ واللغات وسائل. ولا يد في اقتناص تلك المعاني من [امتلاك] ألفاظها لمعرفة دلالاتها اللغوية عليها. وإلا فيعتاص عليه اقتناصها زيادة على ما يكون في مباحثها الذهنية من الاعتياص، وإذا كانت ملكته في تلك الدلالات راسخة. بحيث تتبادر المعاني إلى ذهنه من تلك الألفاظ عند استعمالها، شأن البديهي والجبلي، زال ذلك الحجاب بالجملة بين المعاني والفهم، أو خفف؛ ولم يبق إلا معاناة ما في المعاني^(٤) من المباحث فقط. هذا كله

(١) المقدمة. ص ٧٦٧.

(٢) حذفنا حرف الجر (من) والظرف (بين) لكي تستقيم العبارة. وبدأنا العبارة بتعبير [فالخيالية هي] وضعناها بين معقوتين. وحذفنا (بين) قبل كلمة (العلوم) ووضعنا مكانها: [والذهنية هي] بين معقوتين، لكي تستقيم العبارة. وهذا من خطأ النساخ أو الطابعين.

(٣) حذفنا العبارات التي لا تخدم الموضوع.

(٤) يقصد ابن خلدون (بالمعاني التي في المباحث) - العلم الذي في نوع المبحث، =

إذا كان التعليم تلقيناً وبالخطاب والعبارة. وإذا كانت ملكته فى الدلالة اللفظية والخطية مستحكمة ارتفعت الحجب بينه وبين المعانى. وصار إنما يعانى فهم مباحثها فقط^(١).

٤ - علم النحو:

أعلم أن اللغة فى المعارف هى عبارة المتكلم عن مقصوده. وذلك العبارة فعل لسانى ناشئ عن القصد بإفادة الكلام، فلا بد أن تصير ملكةً متقررةً فى العضو الفاعل لها، وهو اللسان. وهو فى كل أمة بحسب اصطلاحاتهم. وكانت الملكة الحاصلة للعرب من ذلك أحسن الملكات وأوضحها إبانةً عن المقاصد، لدلالة غير الكلمات فيها على كثير من المعانى. مثل الحركات التى تُعَيِّنُ الفاعل من المفعول من المجرور أعنى.

المضاف، ومثل الحروف التى تفضى بالأفعال أى الحركات إلى الذوات من غير تكلف ألفاظ أخرى. وليس يوجد ذلك إلا فى لغة العرب. وأما غيرها من اللغات فكل معنى أو حال لا بد له من ألفاظ تخصه بالدلالة، ولذلك نجد كلام العجم فى مخاطباتهم أطول مما نقره بكلام العرب. وهذا هو معنى قوله -صلى الله عليه وسلم-: «أوتيت جوامع الكلم واختصر لى الكلام اختصاراً»^(٢).

وخشى أهل العلوم [فى اللغة] منهم أن تفسد تلك الملكة رأساً،

= فإذا كنت - مثلاً - تقرأ قصة.. ولغتها بنفس مستوى اللغة التى تتعلم فيها قانوناً فيزيائياً - فإن تحصيلك لمعنى القصة.. أسهل من تحصيلك لمعنى القانون الفيزيائى.

(١) المقدمة، ١٠٥١.

(٢) سبق ذكر المرجع، وهو صحيح البخارى.

فينغلق القرآن والحديث على المفهوم؛ فاستنبطوا من مجارى كلامهم قوانين لتلك الملكة مطردة، شبه الكليات والقواعد، يقيسون عليها سائر أنواع الكلام ويلحقون الأشباه بالأشباه^(١). مثل أن الفاعل مرفوع والمفعول منصوب، والمبتدأ مرفوع.



(١) الذين جعلوا قياس اللغة على (الأعم الأغلب) منها - إنما هم نحاة البصرة من الفرس، (وخالفهم الخليل بن أحمد - العربى نحيزة) أقول: والاكتفاء بالقياس على الأعم الأغلب - يضر باللغة.

وأصح من منهج البصريين هذا - منهج - الكوفيين؛ فقد قاسوا على القليل - كما قاسوا على الكثير، وهذا.. هو الصواب فى اللغة، لأن اللغة.. لا تنمو ولا تواكب تطور الحياة إلا إذا استثمرت جميع إمكاناتها. وإن ابن خلدون - البصرى المذهب النحوى - لم يدرك هذا. (انظر: «رؤى - نحوية وصرفية - تجديدية» - ج٤/ ٤٠-١١ - مرجع سابق.